سوى أعتاب من حجر عظيمة فحفر تحتها إلى الماء فلم يوجد شيء، وجعل من حجره قواعد للعمد الصوان التي بالجامع المستجد بظاهر مصر المعروف بالجامع الجديد الناصري.»

ليس الموضوع «أبو الهول»، ولا تشرشل ولا المقريزي، بل هذه الرغبة غير المفهومة تماما وربما غير المبررة في كتابة حكايتي. أقول ليس مقبولا ولا معقولا، وأنا في الخامسة والستين، أن أهبط على الكتابة هبوط مظلّيّ غير مدرب، يقفز من عل؛ لأنه يريد ويعي أنه ـ للناظرين، ولنفسه ـ يبدو مضحكا في حركاته غير المحَكومة، وقد يسقط فيدق عنقه، ثم ما هي المظلة التي أشرعها فوق رأسي؟

في عام ١٩٤٣ حين ذهب الرجلان لرؤية أبي الهول بعد اجتماع ضمهما في فندق مينا هاوس، كنت في السادسة من عمري، لم أتعرف بعد على صورة الرجل البدين ذي القبعة والسيجار ـ أقصد تشرشل، والرجل الآخر ـ روزفلت ـ ذي الرأس المدور والعدستين المدورتين لنظارته الطبية. وفي العام التالي حين تدور المعارك الطاحنة في العَلَمين وتخلِّف آلاف القتلى في ساحل مصر الشمالي، سيبقى اسما روميل ومونتَجمري كأسماء تشرشل وروزفلت مجرد كلمات، لا أدري إن كانت تشير إلى أماكن أو أشخاص أو أنواع من الطعام.

تدريجيا، ومع مرور الوقت، ستحمل الأسماء ـ والسنوات أيضا ـ معانيها، وتمتلئ بها كجرار كبيرة مستقرة في غرفة خزين نصف معتمة في قاع البيت، أو مرفوعة على ظهر ناقة تشي خطواتها الوئيدة بحملها الثقيل. هل يمكن أن أعيد التشبيه؟ أحاول. ستحمل الأسماء ـ والسنوات أيضا ـ معانيها، وتمتلئ بها كالمدينة نفسها: شوارعها وبناياتها والتماثيل في ميادينها. في طفولتي كانت الأماكن بلا حكايات، لا أعرفها إلا بالنظر وعبورا، مجرد هياكل في خلفية مشهد أسريّ، أهرام الجيزة مثلا تصبح، حين نعرّيها من حكايتها، كالرمال